مؤلّفات المركز، 2022، ص. 351-374

الرمز الصوفي في شعر الأمير عبد القادر الجزائري

صالح الدين ملفوف [1]

مقدّمة

كثيرا ما كان يورد اسم الأمير **عبد القادر الجزائري** مقرونا بأسماء أعلام النهضة الفكرية والأدبية العربية الحديثة في المشرق، **كالبارودي والطهطاوي والبستاني واليازجي**. وإذا كان محمود سامي البارودي رائد النهضة الشعرية في المشرق فإن الأمير عبد القادر رائدها في المغرب، فهما معا يمثلان مدرسة الإحياء والتجديد، وقد اشتركا في صفات البطولة في الشعر وفي الحرب، فكل منهما خاض المعارك في ساحات الوغى، وعاش حياة المنفى والغربة، واتصل بالتراث الأدبي العربي عموما والشعري خصوصا في عصوره الزاهية، مع روح تجديدية متوثبة فكرة وشعورا وطريقة.

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على ظاهرة أدبية مهمة جدا في شعر الأمير عبد القادر كثيرا ما غفل عنها البحاثة والدارسون، ونقصد بذلك نزعة التصوف وكيفية تجسيد رموزه في شعره، فقد كان الأمير متصوفا إسلاميا متحررا من قيود التقليد المميت، ومن عالم المادة الضيق والمغلق، متطلعا إلى عالم الروح الأسمى والأعلى، وقد زاده نفي الفرنسيين له خارج أرض الوطن عزيمة في تثقيف نفسه بأنواع العلوم الدينية والدنيوية، فجالس العلماء، والفقهاء، ورجال الشريعة والحقيقة، وأخذ عنهم الشيء الكثير، فأضاف كل ذلك إلى ثقافته وخبرته في الحياة العملية، فتوسعت آفاق معرفته، وازدادت علوا وشأنا، يقول **بطرس البستاني** عن الأمير في دائرة معارفه : "... وفضلا عن كونه من أعاظم رجال السيف والسياسة فهو أيضا في عداد الكتبة والعلماء وله رسائل وتآليف في التصوف" (البستاني، 1882م، ص. 620). ولأن شعر الأمير عبد القادر الجزائري

[1] Université Khemis Miliana, 44225, Ain Defla, Algérie.

ما زال لم يدرس دراسة نقدية هادئة[1]، ارتأينا أن نميط اللثام عن هذا البعد الروحي المتجذر في كثير من قصائده الشعرية.

وفاء للأمير عبد القادر الجزائري

نشأ الأمير عبد القادر الجزائري بن محيي الدين بن مصطفى بن المختار الإدريسي الحسني الملقب بـ "ناصر الدين" في أسرة كريمة يعود نسبها إلى الرسول --صلى الله عليه وسلم--، أسرة لم تكن مجهولة الأصل في منطقة غريس، وكانت كل القبائل آنذاك تكن لها احتراما كبيرا لما يحمله أبناؤها من شرف وعلم، وقد زاد صيت العائلة ذيوعا بعد تنفيذ مشروع القيطنة العمراني، بفضل المكانة الدينية والاجتماعية التي أصبح يتمتع بها الشيخ **محيي الدين** (والد الأمير) والمرشد الروحي للطريقة القادرية، بعد إنجازه مركزا ثقافيا كبيرا هو "الزاوية القادرية" سنة 1206هـ، الذي كان له الدور الحيوي في تغيير معالم المنطقة وتحويلها إلى ورشات دينية وثقافية، يحفظ الصبية في بعضها القرآن الكريم، ويتعلمون القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وقواعد اللغة في بعضها الآخر، ويلقنون بعض المتون التقليدية الموروثة عن السلف التي لها علاقة بالروحيات[2]، والأمير بذلك سليل زاوية صوفية، فوالده كان شيخ زاوية وطريقة (بوزيد، د. ت.).

وهب الله لمحيي الدين في 23 رجب 1222هـ الموافق لـ 26 سبتمبر 1807م غلاما سماه عبد القادر تيمنا بأجداده، وأولاه شخصيا بعناية خاصة في جميع مراحل طفولته، فتولى تربيته بنفسه ووفر له تعليما مناسبا لقدراته العقلية، وظل يلازمه في السراء والضراء بحيث لم يفارقه حتى في إقامته الجبرية، ورافقه إلى بيت الله الحرام دون إخوته. وفي حضن أم ذات شخصية قوية تشكلت المعالم الأولى لشخصية الأمير، وكان يحمل لها في قلبه إعجابا وإكبارا شديدين، ظهر أثرهما في بره بها واحترامه الشديد لها، مما جعله يستشيرها ويأخذ برأيها في كثير من شؤونه وفي أحرج ظروفه[3]. وقد سمحت ملازمة الابن لوالده بأن يكتشف هذا الأخير فيه نبوغا مبشرا بالنباهة الفطرية، والفطنة الذكية، والنمو السريع في القدرات

---

[1] ينظر : أبو القاسم سعد الله. مقدمة ترجمته كتاب تشرشل، شارل هنري (1974م). **حياة الأمير عبد القادر**. (أبو القاسم سعد الله. ت.). تونس : الدار التونسية للنشر، ص. 28.

[2] ينظر : سعدوني، نصر الدين (1984م). **الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)**. الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ص. 228.

[3] ينظر : التهامي، الحاج مصطفى (1995م). **سيرة الأمير عبد القادر وجهاده**. (ط. 1)، (يحيى بوعزيز. تح. وتق. وتع.). بيروت : دار الغرب الإسلامي، ص. 50. وينظر كذلك ناصر، محمد (1984م). **منتخبات من شعر الأمير عبد القادر**. الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، (د. ط). ص. 08.

الجسمية، والتطور غير العادي في الملكات العقلية، فاستغل هذه الإيجابيات في صقل قدرات طفله البيولوجية ومواهبه الذاتية، وهذه العبقرية النادرة هي التي أهلته للتكيف والاندماج مع الأكبر منه سنا، وساعدته على الاستجابة للتعلم في سن مبكر، ومكنته من حضور حلقات الدروس المخصصة للأكبر منه سنا، ودفعت به إلى تدعيم ثقافته الذاتية بمطالعة أمهات الكتب، ومخالطة أهل العلم والمعرفة والثقافة والسياسة المقيمين بالقيطنة وزوارها، ومجالسة زعماء القبائل وكبارها، والاستفادة من تجاربهم الماضية وخبراتهم الذاتية والسياسية، والتقرب من المريدين الوافدين على الزاوية، ليعايش عن قرب طهارة فقه تصوف الطريقة القادرية[4].

لقد أوحى هذا الإقبال الكبير على التعلم والتثقيف لوالده محي الدين بفكرة مغامرة الرحلة الدراسية لاكتساب تجارب الرجولة، مثل التكوين الميداني الذي يجنيه المغترب من التدريب وغيره، من تعود على محن الغربة وقساوة مرارتها، وهي رحلة تهدف في الظاهر إلى توسيع معارف الأمير في بعض العلوم التي تفتقرها الزاوية، كالحساب، والتاريخ والجغرافيا، وعلوم اللغة وآدابها، والثقافة الدينية وأصولها. غير أنه يمكن أن تكون لهذه الرحلة أهداف غير معلنة، كالاحتكاك بتجارب المدرسين الكبار وصفوة العلماء بالمنطقة، أمثال : الشيخ أحمد بن الطاهر قاضي أرزيو، وأحمد بن خوجة بوهران، وغيرهما من رجالات العلم والفكر والسياسة[5]. وتعد هذه السفرية بمثابة بداية التكوين الحقيقي الذي عززه الأمير برحلته إلى بيت الله الحرام ومجالسة علماء تونس، ومصر، وبغداد، ناهيك عن استفادته من حلقات الدروس المتنوعة التي كانت تلقى بالجامع الكبير بدمشق التي أقام بها شهورا، وأخذه من مخزون تراث السلف بالمشرق، الذي فيه ما يكفي لعبقري مثله أن يكتسب كثيرا من تجارب غيره، ومن أشهر الذين أخذ عنهم، نذكر: **عبد الرحمن الكزبري** إمام دمشق ومحدثها، **وضياء الدين خالد النقشبندي السهروردي**. ولا شك أن هذه الأسفار قد أكسبت الأمير الشاب تجربة مفيدة وفتحت عينيه على واقع العالم الإسلامي في تلك الظروف، وأكسبته علما ومعرفة، ومنحته فرصة الاحتكاك بالعظماء والعلماء في العالم الإسلامي، مما زاد الرابطة الإسلامية توثيقا في نفسه[6].

---

[4] ينظر : سعدوني، نصر الدين (1984م). **الجزائر في التاريخ (العهد العثماني)**. الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ص. 228.

[5] ينظر : بلغراد، محمد (1983م). الأمير عبد القادر، **مجلة التاريخ**، عدد خاص. الجزائر : المركز الوطني للدراسات التاريخية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص. 125.

[6] ينظر : التهامي، الحاج مصطفى (1995م). **سيرة الأمير عبد القادر وجهاده**. (ط. 1)، (يحيى بوعزيز، تح. وتق. وتع.). بيروت : دار الغرب الإسلامي، ص. 96.

لم يدخر الأمير عبد القادر وجيشه جهدا في مقاومة الاحتلال الفرنسي والدفاع عن حق الوطن في الحياة الحرة الكريمة، وبذل في سبيل ذلك من الأرواح والأموال الغالي والنفيس، ودامت الحرب سجالا مدة ستة عشر عاما، اضطر الأمير بعدها إلى دخول المملكة المغربية واتخاذ بلاد الريف قاعدة لأعماله الحربية، فساءت العلاقة بينه وبين سلطان المغرب، وتقاعس ملوك المسلمين عن معونته وتأييده، وتآمر عليه المتآمرون من الداخل، وما استسلم حتى استنفذ جميع السبل ومقابل شروط معينة، بدأت فرنسا بنكثها حين وعدته بنقله إلى المشرق بحرا، وأنزلته بمرسى "طولون" الفرنسي أسيرا، ليحبس بأمبواز خمس سنوات.

بعد مضي سنوات الأسر، تقرر إطلاق سراح الأمير، فسافر إلى اسطنبول، أين استقبله السلطان العثماني عبد المجيد بحفاوة، وخيره في النزول حيث يشاء فاختار مدينة "بروسة"، وأقام بقصر مدينتها معززا مكرما، واشتغل فيها بتدريس النحو والفقه والمنطق والتصوف بجامع العرب، غير أنه لم يستقر بها غير عامين ونصف، ارتحل بعدهما إلى دمشق واتخذها سكنا له ولعائلته، وشرع في إلقاء الدروس العلمية بمدرسة "دار الحديث" وذاع صيته عالميا، وجعل من دمشق منطلقا لرحلاته المتعددة إلى القدس، والعراق، والحجاز، ومصر، واسطنبول، وأوربا.

ظل الأمير بدمشق بين علم يزيده اطلاعا وتفتحا على الأمور الدينية والدنيوية، وسفر بين البلدان العربية والأوربية، واتصال بالزعماء والقادة والعلماء والحكام في العالم، وكتابة للشعر وتأليف للكتب، وعبادة وتهجد، إلى أن وافته المنية يوم الجمعة 19 رجب من سنة 1300هـ الموافق لسنة 1883م عن عمر يناهز السادسة والسبعين عاما بقرية "دمر"، فاهتزت دمشق لموته وبكاه الناس على اختلاف مشاربهم، ورثاه الأدباء والشعراء أحر رثاء، ودفن في جنازة مهيبة في "الصالحية" إلى جوار العلامة الصوفي **محي الدين بن عربي**، وبعد تحقيق الجزائر لاستقلالها حملت رفاته إلى أرض الوطن في احتفال شعبي ورسمي يوم الاثنين 04 جويلية سنة 1966م ليكون قبره فيها بمقبرة العالية[7]. وموت الأمير عبد القادر في حقيقة الأمر حدث جلل في تاريخ الدولة الجزائرية وثقافتها آنذاك، فالراحل رمز الدولة الجزائرية في عز الاحتلال، وما خلفه من إرث نضالي وطني وقومي يحمل الأبناء والأحفاد أعباء مسؤولية الاستمرار في المطالبة بتحقيق آمال الرجل وأحلامه، ويدعوهم إلى التماسك في مقاومة الاستعمار والقضاء على آثار استعباده.

[7] ينظر : ناصر محمد، (1984م). **منتخبات من شعر الأمير عبد القادر**. الجزائر : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ص. 12.

آثار الأمير عبد القادر الفنية

استهل الأمير عبد القادر كتابة الشعر شابا كما تدل على ذلك وثيقة البيعة الأولى التي تصفه بالشاعر الناثر، وقد دأب على كتابة الشعر إلى أخريات أيام حياته، ولم ينصرف عن ذلك في كل حالاته، سواء في مرحلة المقاومة والجهاد في الجزائر، أم في مرحلة الاعتقال بفرنسا، أم في مرحلة الاستقرار في الشام، ويغلب على الظن أن أغلب القسم الأول من شعره قد ضاع خلال هجوم الفرنسيين على "الزمالة" واستيلائهم على مكتبة الأمير وأوراقه الخاصة، أما القسم المتعلق بالمرحلتين التاليتين فقد أثبت ما تعلق منه بالتصوف في كتابه (المواقف)، واعتنى نجله محمد بجمع ما لم يكن منه صوفيا في ديوان صغير سماه عند الطبع: (نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر)[8]، وفي رأينا أن كثيرا من شعر الأمير لا يزال مجهولا، ولا ندري أين يوجد، والمحتمل أن كثيره موجود في خزائن الشام، وقليله متفرق بين الجزائر، وتركيا، وفرنسا.

من خلال محتويات هذا الديوان المشار إليه آنفا، يتبين لنا تصنيف شعر الأمير حسب مراحل حياته إلى ثلاثة أقسام : قسم قاله بالجزائر أيام الجهاد وهو ضئيل إذ لا يتجاوز ست قصائد وبعض المقطوعات، ويغلب عليه طابع الفخر والحماسة، والتغني بالشرف والبطولة، والحنين إلى الأهل الذين اضطرتهم الظروف إلى الابتعاد عنه، وقسم ثان قاله وهو بأمبواز أسيرا، ونجده فيه ضارعا لله، متوسلا برسوله أن يزيل عنه آلامه، متشوقا إلى الأهل والخلان، وأحيانا يكون متغزلا بكثير من العفة، أو واصفا ما في البداوة من طهر وصفاء، وما في الحضارة من زيف ونفاق، وقسم ثالث قاله بعد إطلاق سراحه، وطرق فيه كل الموضوعات التقليدية المعروفة، من مدح، وتهنئة، ووصف، وغزل، وإخوانيات، وتصوف. أما عن القصائد الواردة في نهاية مقدمة كتاب (المواقف) فقد بلغ عددها تسع عشرة قصيدة ومقطوعة : ثلاث منها وردت في الديوان، والباقية وردت في مقدمة كتاب المواقف فقط، وهي ما ضرب عنه ابنه محمد صفحا في الديوان، وأشار إليه بالحقيقة واللطائف وهو يعني بذلك شعر التصوف.

ويقول بعض الدارسين بأن للأمير شعرا كثيرا تناقله رجال الطرق في أذكارهم، وأن هذا الشعر قد أصبح خليطا عجيبا من أقواله ومن أقوال سواه، ومزيجا غريبا من أقوال متفاوتة الدرجات، وأكثره مختل الوزن، مضطرب المعنى، والذي يؤدي هذا الزعم هو ما

[8] كانت فرنسا السباقة في جمع شعر الأمير وطبعه في كتاب حمل عنوان : أشعار عبد القادر وأنظمته العسكرية سنة 1848م، أما المحاولة الثانية فقد قام بها الأمير محمد الذي جمع شعر والده في ديوان صغير اختار له عنوان : نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر سنة 1899م عن مطبعة المعارف بمصر.

يلحظ من تفاوت بين في هذا الشعر المنشور في كتابه (المواقف)، فبعض المقطوعات فيه تتسم بضعف لغوي وعروضي واضح، مما يصعب معه تصديق نسبتها للأمير[9].

ومهما يكن من أمر، يرى الأمير عبد القادر في الشعر أنه من متممات الشخصية العربية، يعتز به كل معتز بالفصاحة والبيان والكلمة الطيبة، ولهذا الشأن كان يعده من مفاخر العرب، ويتخذه زينة وحلية ويجيز عليه الشعراء الذين يمتدحونه بالعطايا، كما كان يساجل العلماء به من أقرانه وإخوانه، وكثيرا ما كان يردد :

إِذَا جَهِلْتَ مَكَانَ الشِّعْرِ مِنْ شَرَفٍ فَأَيَّ مَفْخَرَةٍ أَبْقَيْتَ للعَرَبِ ؟!

إذا كان ما وصلنا من شعر الأمير لا يعكس ثقافته الواسعة، فالنثر كشف عنها في تحبيرات سليمة من الأساليب الركيكة، والمحسنات البديعية المكلفة، وتشهد بذلك كتاباته القيمة التي أظهر فيها ثقافة واسعة في الفكر العربي الإسلامي، بيد أن مؤلفات الأمير كانت في مجملها موجهة للخواص من القراء، لما فيها من إحياء للفكر الديني، والفلسفة المستوعبة لكل العلوم الإسلامية والإغريقية، كالمنطق، والطب، والفلك، وعلوم التاريخ والجغرافيا، وعلم النفس، والاجتماع، وما إلى ذلك من العلوم المتنوعة التي تداولها جهابذة الفكر في العصور الزاهية.

يعد كتاب (ذكرى العاقل وتنبيه الغافل) من مؤلفات الأمير التي احتوت بين دفتيها على الكثير من العلوم الإسلامية التقليدية، وأبانت على ثقافة الأمير الموسوعية في العلوم المنقولة والمعقولة، وقد لا يتمكن من فهم محتواه العميق إلا الخواص من الناس، ولنا في المقطع التالي شاهد على ذلك، يقول الأمير :

> "اعلموا أن الإنسان من حيث حصوله في الحيز والمكان فجسم كسائر الأجسام، ومن حيث يتغذى وينسل فنبات، ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط." (الأمير عبد القادر الجزائري، د.ت.، ص. 37)

[9] ينظر : عبد القادر الجزائري (1965م). **الديوان**، (ط. 3). (ممدوح حقي. تح.). بيروت : دار اليقظة العربية، ص. 18. وينظر أيضا الركيبي، عبد الله (1981م)، **الشعر الديني الجزائري الحديث**. الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، صص. 253-254.

وأما كتاب (المواقف) فيصنف في خانة الإنجازات العلمية الكبيرة، أبرز فيه الأمير كفاءة الإنسان المسلم وحسه الفكري السليم، حبره للنخبة المثقفة دينيا وفلسفيا، ذلك أن الإنسان العادي قد يكفر الأمير بمجرد اطلاعه على بعض النصوص التي لا يفقه معناها العميق والصحيح، كتلك التي تناول فيها علاقة الخالق والمخلوق حين قال :

> "فالحق تعالى له القدم وما له دخل في الحدوث، والعالم له الحدوث وما له دخل في القدم، والإنسان له القدم وله دخل في الحدوث، فهو منعوت بهما فلهذا هو رب وعبد. عبد من حيث أنه مخلوق مكلف ورب من حيث أنه خليفة."
> (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م)

للأمير عبد القادر مؤلفات أخرى حبّرها لكل القراء على اختلاف مشاربهم ومستوياتهم دون استثناء، مثل تأليفه المعنون بـ (وشائح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب)، الذي أكد فيه تطبيق دعوة **ابن العنابي** الرامية إلى التجديد في الثقافة[10]، أو مذكراته التي كتبها في السجن سنة 1849م، ودوّن فيها سيرته الذاتية (محمد الصغير وآخرون، 1995م)، التي تحفّظ الكثير من الباحثين والمؤرخين على صحة انتسابها للأمير.

مفهوم التصوف عند الأمير عبد القادر

قمين بنا - قبل الخوض في تصوف الأمير عبد القادر وكيفية تجسيده في كتاباته الشعرية - أن نسلط الضوء على مفهوم التصوف عند المتصوفين المسلمين، ومن الواضح أنه يصعب حصر التصوف الإسلامي في تعريف جامع مانع، ذلك أن التعاريف فيه قد بلغت من الكثرة العددية ما دفع بأحد شيوخ التصوف إلى القول : "حد ورسم وفسر بوجوه تبلغ الألفين. مرجع كلها أن التصوف صدق التوجه إلى الله بما يرضاه من حيث يرضاه" (زروق، 1968م، ص. 6). وقد لاحظ ابن خلدون الكثرة العددية في تعاريف الصوفية، وردها إلى سببين هما : اختلاف أحوال المتصوفين، وتطور الحياة الإسلامية. فمن المتصوفين من عبر بأحوال البداية، كقول الحريري : "التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني"[11]. وكقول القصاب : "هو أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع

[10] ينظر : أبو القاسم، سعد الله (1990م). **ابن العنابي (رائد التجديد الإسلامي)**. (ط. 2). بيروت : دار الغرب الإسلامي، ص. 15.

[11] التعريفان واردان في الرسالة القشيرية، ج. 2، ص. 552. وفي اللمع في التصوف للطوسي، ص. 45.

قوم كرام"[12]. ومنهم من عبر بأحوال النهاية، فقد سئل **الجنيد** عن التصوف فقال : "أن تكون مع الله بلا علاقة"[13]. والتصوف : "طريقة في السلوك تعتمد على التزهد والتقشف والتحلي بالفضائل تزكية للنفس وسعيا إلى مرتبة الفناء في الله تعالى" (المنجد في اللغة العربية المعاصرة، 2000م). والتصوف أيضا : "الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطنا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر، فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال" (الجرجاني، 2007م، ص. 123). وقد عرفه الشيخ أبو الحسن الشاذلي بدقة وإيجاز حين قال : "التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية" (الكتاني، 2008م، ص. 8).

ومما لاشك فيه أن التصوف الإسلامي قد استن المبادئ من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ووجد المتجهون إلى المعاني الروحية في الجماعة الإسلامية في حياة النبي -- صلى الله عليه وسلم-- أسوتهم في أعمالهم، هذه السيرة التي اتسمت بسمو النفس وعظمة الروح، بالتقليل من متاع الدنيا والتحقير من زينتها وزهرتها، والإكثار من الصوم والتهجد، والحث على مراقبة النفس والفكر والذكر، والتحذير من الغفلة والهوى. علما بأن التصوف الإسلامي ازداد بما يلائم مقاصده من غير الملل التي دان علماء فيهم بالإسلام، فنقلوا له بعض ما احتفظوا به من معتقداتهم التي وجدوا لها في القرآن الكريم وأحاديث المصطفى ما يؤيدها[14].

للأمير عبد القادر تعريفه الخاص بالتصوف، فهو يعده "جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية، والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية، لا لشيء آخر من غير سبيل الله" (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م، ص. 141). ويوجه الأمير تحذيره إلى الصوفي الذي "يجاهد نفسه بالرياضات الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك، أو لصرف وجوه العامة إليه، أو حصول غنى، أو نحو ذلك من الحظوظ النفسية" (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م، ص. 141). والصوفيون في نظر الأمير هم هؤلاء الذين عليهم "أن يكونوا في جميع أحوالهم وتصرفاتهم حاضرين مع الله تعالى" (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م، مج. 1، ص. 46). هذا هو مفهوم التصوف

[12] نفسه، ص. 45.

[13] ورد هذا التعريف في اللمع في التصوف للطوسي، ص. 45.

[14] ينظر : المرابط، جواد (1966م). **التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري**. دمشق-سوريا : دار اليقظة العربية، ص. 9.

عند الأمير، جهاد للنفس في سبيل معرفة الله عن طريق الرياضات الشاقة، والعبادة الخالصة لله، والحضور الدائم مع الله، لا سبيلا للاسترزاق والتكسب أو طلب الحظوة والسلطان.

لقد أطلق الأمير على الصوفيين ألقابا عديدة فهم تارة "أهل الله"، وطورا "العارفون"، ومرة "أهل الكشف والعرض"، ويحاول الأمير من خلال تعريفه لأهل الله أن يصحح بعض المفاهيم الخاطئة، التي كانت ترسخ في أذهان بعض الناس في عصره عن التصوف والمتصوفين، فأهل الله الذين يعنيهم الأمر بحديثه ليسوا "هؤلاء الذين يأكلون النار ويدخلون مسامير الحديد في أشداقهم، ويدخلون التنور ويمشون راكبين على ظهور الأشخاص ليعرفهم العوام... لأن ما يصدر عن هؤلاء منه ما هو شعوذة ومنه ما هو سيمياء، ومنه ما هو خواص نفسية يتوارثونها بينهم" (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م، مج. 2، ص. 678).

أسباب تصوف الأمير عبد القادر

إنّ الأسباب التي حملت الأمير على سلوك طريق التصوف كثيرة ومتنوعة، نجملها في : نزعته الإنسانية، وانتمائه إلى آل البيت النبوي، وتربيته الدينية والصوفية، وإيمانه الشديد بالقضاء والقدر، ومحاربته التقليد والمقلدين، وتركه للحياة السياسية والعسكرية بعد استسلامه، وأخيرا عزلته في أسره بأمبواز. تأتي نزعة الأمير الإنسانية في طليعة الأسباب التي دفعت به صوب التصوف، ذلك أنه أراد أن يكون صلة الوصل بينه وبين أخيه الإنسان شرقيا كان أم غربيا أو أوربيا، مسلما أو مسيحيا، إذ أن "أساس الديانة، وأصولها، خلاف فيها، بين الأنبياء، من أدم، إلى محمد عليه الصلاة والسلام. فكلهم يدعون الخلق إلى توحيد الإله وتعظيمه" (الأمير عبد القادر الجزائري، د.ت.، ص. 101). والمتأمل في التسامح الديني الذي عرف به الأمير في أثناء وجوده في الجزائر، وخارجها منفيا، يدرك أن الرجل كان على مستوى من الوعي الإنساني، المتفهم لحقيقة الإنسان والإنسانية التي لا تؤمن بالحدود والحواجز بين البشر، وما تدخل الأمير في أثناء فتنة 1860م المشؤومة في دمشق إلا دليل على ذلك، وأكثر ما تبدو نزعة الأمير الإنسانية في قصائده الصوفية التي أكد في بعضها على وحدة الأديان السماوية، فهو تارة هذا المسلم الزاهد، وطورا هذا الراهب الذي يسرع إلى الكنائس، ومرة مدرس يهودي للتوراة، يقول في هذا الشأن :

فَطَـــوْرًا تَرَانِـــي مُسْـــلِمًا أَيَّ مُسْـــلِمٍ زَهُـــودًا نَسُوكًـــا خَاضِعـــاً طَالِبًـــا مَـــدَّا

وَطَـــوْرًا تَرَانِـــي لِلْكَنـــَائِسِ مسرِعَـــا وَفِـــي وَسَـــطِي الزِّنَـــارُ أَحْكَمْتُـــهُ شَـــدَّا

وَطَـــوْرًا بِمَـــدَارِسِ اليَهُـــودِ مُدَرِّسًـــا أَقَـــرِّرُ تَـــوْرَاةً وَأَبْـــدِي لَهُـــم رَشَـــدَا

مما لا شك فيه أن الأمير عبد القادر قد افتخر بنسبه إلى آل البيت النبوي الشريف، وظهر فخره هذا في العديد من القصائد الفخرية والحماسية التي نظمها في المرحلتين الأولى والثانية من حياته[15]. أما موقفه من أهل البيت عامة، فيبدو لنا في شرحه للآية الكريمة : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[16] سورة الأحزاب. من الآية 33. والتي قال فيها : "تأمل هذه العناية الكبرى، والمنقبة العظمى، والمنزلة الزلفى، لأهل البيت النبوي. ولفظة أهل تعمهم من أولهم إلى آخر مولود منهم، حصر تعالى إرادته فيهم بأنها لإذهاب الرجس عنهم، وتطهيرهم من الرجس، وهو الذنب، تطهيرا كاملا مؤكدا بالمصدر، وذلك بأن يكون كل ما يصدر منهم من المعاصي والمخالفات، مغفورة لهم، بل المغفرة متقدمة..." (الامير عبد القادر الجزائري، 1967).

شب الأمير عبد القادر في جو تربوي ديني، فقد نشأ نشأته الأولى في مدرسة الزاوية التي كان والده أنشأها، وتلقى مبادئ العلوم الدينية والفقهية فيها، وكان طموحه الأكبر في شبابه أن يصبح مرابطا، مثل والده الذي كان يحبه، ويتحمس له تحمسا بالغا. وغني عن القول إن حياة الفتوة والمرابطة ترتبط ارتباطا وثيقا بحياة الصوفيين في مجاهداتهم الصوفية. وقد جاهد الأمير في المرحلة الثانية من حياته في سبيل الوصول إلى مرتبة الفتوة والمرابطة، وما ذلك إلا نتيجة التربية الدينية والصوفية التي ربي عليها. ناهيك عن تأثره بشيوخ الزوايا والطرق في المشرق[17].

يدخل إيمان الأمير عبد القادر الشديد بالقضاء والقدر في جملة الأسباب التي حملته على سلوك طريق التصوف، ونلمس إيمانه هذا في كتاب العهد الذي أعطاه الأمير للويس نابليون Louis Napoléon، وتعهد فيه بعدم العودة إلى أرض الجزائر قائلا :

[15] ينظر : الأمير عبد القادر الجزائري (1965م). **الديوان**. (ط. 3). (ممدوح حقي. شر. وتح.). بيروت : منشورات دار اليقظة العربية... افتخاره بنسبه النبوي الشريف في قصيدة (أبونا رسول الله) الواردة في الصفحة 32، وقصيدة (بنا افتخر الزمان) في الصفحة 34.

[16] سورة الأحزاب. من الآية : 33.

[17] أخذ الأمير في دمشق الطريقة النقشبندية عن الشيخ خالد النقشبندي السهروري، وأخذ وهو في بغداد الطريقة القادرية، ولبس الخرقة القادرية من يد نقيب الأشراف ببغداد الشيخ محمود القادري الكيلاني.

"عندما أمرني الله بالنهوض نهضت.. ولكن عندما أمرني بالتوقف توقفت، وعند ذلك فقط تخليت عن السلطة واستسلمت"[18]. ويعبر الأمير في رسالته التي أرسلها إلى ديبيش Dupuch رئيس أساقفة باريس، عن مغيبات القدر وعن الدور الذي رسم له منذ ميلاده قائلا :

> "لعلك اكتشفت من خلال حديثنا أنني لم أولد لأكون محاربا. ويبدو لي أنه كان يجب علي أن لا أكون محاربا ولو يوما واحدا. ومع ذلك فقد حملت السلاح... ما أكثر غموض مغيبات القدر، ولم يكن سوى محض الصدفة أن وجدت نفسي بعيدا تماما عن الدور الذي حدده لي ميلادي وتربيتي وميولي، وهو الدور الذي كما تعلم جيدا، طالما تشوقت لاستئنافه والذي لم أزل أصلي إلى الله أن يسمح لي بالعودة إليه، الآن وأنا في خاتمة حياتي الشاقة." (تشرشل، 1974م، ص. 258)

للأمير عبد القادر موقف خاص من قضية التقليد والمقلدين، فهو يعتقد أن الإنسان قد يكون "محجوبا باعتقاد سبق إلى القلب، وقت الصبا، على طريق التقليد، والقبول بحسن الظن، فإن ذلك، يحول بين القلب، والوصول إلى الحقائق. ويمنع أن ينكشف، في القلب غير ما تلقاه بالتقليد. وهذا حجاب عظيم، حجب أكثر الخلق، عن الوصول إلى الحق، لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية، رسخت في نفوسهم، وجمدت عليها قلوبهم" (الأمير عبد القادر الجزائري، د.ت، صص. 34-35). ويوجه الأمير كلامه للمقلد والمقلدين قائلا : "إذا كنت مقلدا فليس كلامي معك" (الامير عبد القادر الجزائري، 1967)، لأن معرفة طريق الحق تفرض على الناظر أن يبصر "بعين الإنصاف، ويرمي التقليد أو التعصب والاعتساف" (الامير عبد القادر الجزائري، 1967).

إن المرحلة الثانية من حياة الأمير عبد القادر (مرحلة الجهاد) قد استنفدت الشيء الكثير من تفكيره، وانحصر هذا الأخير في الأمور السياسية والعسكرية، لا يتخطاها إلا في القليل النادر[19]. بيد أن دخوله في معترك الحياة السياسية والعسكرية كان مفيدا جدا، فقد أوجد له بديلا عن فقدان نشاطه الأدبي والعلمي هو فتوته ومرابطته، وهما حركتان

[18] نص العهد موجود في الصفحة 267 من كتاب تشرشل المعنون بـ حياة الأمير عبد القادر، الصادر عن منشورات الدار التونسية للنشر سنة 1974م.

[19] ما يلاحظ على معظم إنتاج الأمير الأدبي ككتاب المواقف مثلا أنه قد خرج إلى حيز الوجود في المرحلة الثالثة من حياته بعد خروجه من الجزائر، ونفيه خارج أرض الوطن.

من أشد الحركات ارتباطا بالتصوف. وبانقضاء هذه المرحلة السياسية والعسكرية، تبدأ مرحلة جديدة، هي مرحلة التصوف والعبادة، والتجرد عن متاع الدنيا الفانية.

كانت عزلة الأمير عبد القادر بأمبواز في فرنسا من أسباب تصوفه لكونها مرحلة هامة من المراحل التاريخية لتصوفه، إذ كان يشغل نفسه فيها بالدعاء والتضرع، حيث ترد عليه الواردات في الوقائع مشيرة وآمرة بالصبر، عندما ضاقت عليه الأرجاء متواثبا مع وقدة الاضطرار تارة ووقدة الشوق تارة أخرى، وهذا ما أورده يوسف المرابط مما سمعه من أبيه عبد الرحمن المرابط (صديق الأمير ورفيق صباه)[20].

كانت هذه الأسباب الرئيسية لتصوف الأمير، أسهبنا في شرح بعضها، واختصرنا في شرح البعض الآخر، حسب أهمية السبب، وقوته في جذب الأمير لسلوك طريق التصوف من منظورنا الشخصي.

شعر الأمير الصوفي ورموزه

جدير بنا -قبل الخوض في تصوف الأمير عبد القادر الشعري ورموزه- أن نعرج على مفهوم الرمز ونشأة الشعر الرمزي عند الصوفيين، والرمز بفتح الراء والرمز بضمها تعني الإيماء والإشارة[21]. ويبدو أن السبب في نشأة الشعر الرمزي عند الصوفيين هو تلك الحملة القوية التي شنها الفقهاء على المتصوفة، فأخذ كل فريق يناوئ الآخر ويشنع عليه، فاضطر الصوفية إلى الرمز والتعمية في كلامهم، وقد جعل المتصوفة من ذلك الأسلوب الرمزي قناعا، يسترون به الأمور التي رغبوا في كتمانها عن العامة من الناس وعن الفقهاء، ويتسترون وراءها.

كانت الرمزية الخمرية عند الصوفيين غنية صادقة، فقد عبر الصوفيون عن مدى شوق الروح إلى معرفة الله، ومحبته بعبارات تكاد تكون عبارات شعراء الغزل والنسيب، بل أن التشابه ليشتد أحيانا، فنتوهم أن قصيدة صوفية هي في الأصل قصيدة خمرية أو غزلية شأن قصائد شعراء الخمرة والغزل. وسنتناول في ما يلي رمزين أساسيين من رموز

---

[20] ينظر : المرابط، جواد (1966م). **التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري**. دمشق-سوريا : دار اليقظة العربية، ص. 18.

[21] ينظر : ابن منظور، (2004م). **لسان العرب**. مج.5. صص. 356-357 ; وينظر: كذلك البستاني بطرس، **محيط المحيط**. مج1. صص. 816-817.

الأمير الصوفية هما: الخمرة والحبيب (المحبة)، ولعل داعي هذا الاختيار دون سواه مرده إلى أنهما أكثر رموز الأمير ظهورا ووضوحا في قصائده الصوفية.

الخمرة الصوفية

لم يفرد الأمير للخمرة الحسية المادية قصائد ومقطوعات في ديوانه ولم يذكرها بتاتا، وكل ما في الأمر أنه ذكر هذه الخمرة الإلهية التي وصفها وصفا يكاد يكون شبيها بوصف **ابن الفارض** حين عدها رمزا للمعرفة الإلهية، أو لمعرفة الحبيب الأزلي، أي واجب المطلق، يقول ابن الفارض في مطلع قصيدته :

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنا بِهَا مِنْ قَبلِ أَنْ يُخْلَقَ الكَرْمُ

فَإِنْ ذُكِرَتْ فِي الحَيِّ أَصْبَحَ أَهْلُهُ نَشَاوَى وَلا عَارٌ عَلَيهِم وَلا إِثْمُ
(ابن الفارض، 1888، ص. 148)

لقد تطرق الأمير عبد القادر إلى ذكر هذه الخمرة الإلهية في ديوانه في قصيدة صوفية واحدة اختار لها عنوان (أستاذي الصوفي) ومطلعها :

أَمَسْعُودٌ جَاءَ السَّعْدُ وَالخَيْرُ وَاليُسْرُ وَوَلَّتْ جُيُوشُ النَّحْسِ لَيْسَ لَهَا ذِكْرُ
(عبد القادر الجزائري، 1965م، ص. 197)

وقصيدة الأمير الصوفية التي ضمنها ذكر الخمرة تكاد تكون صورة طبق الأصل لقصيدة ابن الفارض، بيد أن الفرق الوحيد بينهما هو أن موضوع قصيدة ابن الفارض الخمرة الإلهية فقط، في حين أن قصيدة الأمير عبد القادر يكون الموضوع الخمري فيها جزءا من مواضيع أخرى.

تناول الأمير الخمرة الإلهية فذكر قدمها الذي يعود إلى ما قبل كسرى، وهي خمرة لا تسكر، وتحدث عن أثرها، وبأنها هي العلم، بوصفها الغنيمة الكبرى ولذلك تصح الهجرة إليها وبلوغها، وعن خصائص هذه الخمرة فهي المعتقة من قبل **كسرى أنو شروان**، والمصونة عن كل ما يسيء إليها ويدنسها، فلا ضمها دن، ولا عابها عيب، ولا عرضت للتجارة، لأنها بكل بساطة مخصوصة بالأكارم من الناس وليست متوفرة لكل الناس، يقول الأمير :

مُعَتَّقَـــةٌ مِـــنْ قِبَـــلِ كِسْـــرَى مَصُـــونَةٌ وَمَـــا ضَـــمَّهَا دَنٌّ وَلا نَالَهَـــا عَصْـــرُ

وَلا شَانَهَـــا زِقٌّ وَلا سَـــارَ سَـــائِر بِأَجْمَالِهَـــا كَـــلا وَلا نَالَهَـــا تَجْـــرُ
(عبـــد القـــادر الجزائـــري، 1965م، ص. 208)

وخمرة الأمير كخمرة الجنة التي نفى القرآن عنها الإسكار، فليس لها صفات الخمرة الدنيوية، فلا يوصف شاربها بالسكر، ولا بخفة العقل والجهل والحمق، وهي الخمرة الصافية التي لا تشوبها شائبة، يقول الأمير في هذا الشأن :

وَيَشْـــرَبُ كَأْسًـــا صِـــرْفَةً مِـــنْ مُدَامَـــةٍ فَيَـــا حَبَّـــذَا كَـــأْسٌ وَيَـــا حَبَّـــذَا خَمْـــرُ

فَـــلا غَـــوْلَ فِيهَـــا لا وَلا عَنْهَـــا نَزْفَـــةٌ وَلَـــيْسَ لَهَـــا بَـــرْدٌ وَلَـــيْسَ لَهَـــا حَـــرُّ
(الاميـر عبـد القـادر الجزائـري، 1965م، ص. 207)

ويظهر تأثير هذه الخمرة الشديد في تخلي الملوك عن تيجانهم وممالكهم طوعا لا كرها بمجرد أن ينظروا إلى ختم إنائها، تماما كندماء ابن الفارض، يقول الأمير :

فَلَـــوْ نَـــظَرَ الأَمْـــلاكُ خَتْـــمَ إِنَائِهَـــا تَخَلَّـــوا عَـــنِ الأَمْـــلاكِ طَوْعًـــا وَلا قَهْـــرُ

وَلَـــوْ شَـــمَّتْ الأَعْـــلامُ فـــي الـــدَّرْسِ رِيحَهَـــا لَمَـــا طَـــاشَ عَـــنْ صَـــوْبِ الصَّـــوَابِ لهَـــا فِكْـــرُ
(عبـــد القـــادر الجزائـــري، 1965م، ص. 208).

والخمرة عند الأمير هي العلم كل العلم، بل هي مركز كل العلوم التي تستمد منه نورها وإشعاعها، وهذا ما يشير إليه الأمير بقوله :

هِـــيَ العِلْـــمُ كُـــلُّ العِلْـــمِ والمَرْكَـــزُ الـــذِي بِـــهِ كُـــلُّ عِلْـــمٍ كُـــلَّ حِـــينٍ لَـــهُ دَوْرُ
(عبـــد القـــادر الجزائـــري، 1965م، ص. 208).

يحلو للأمير عبد القادر أن يعقد المقارنة بين الصوفي الخبير بشرب هذه الخمرة، وبين الجاهل الذي يخرج صفر اليدين بعد شربها ولا يستفيد شيئا، فالغنيمة الكبرى في هذه الحياة أن ينال المرء منها، والغبن الكبير في جهله لها، وهذا ما عبر عنه الأمير بقوله :

فَـــلا عَـــالِمَ إِلا خَبِيـــرٌ بِـــشُرْبِهَـــا وَلا جَـــاهِـــلَ إِلا جَـــهُـــولٌ بِهَـــا غَـــرُّ

ولا غُـــبْنَ فـــي الدُّنيَـــا وَلا مِـــن رَزِينَـــةٍ سِـــوَى رَجُـــلٍ عَـــنْ نَيْلِهَـــا حَظَّـــهُ نَـــزْرُ

وَلا خَسِــرَ فــي الــدُّنْيَا وَلا هُــوَ خَاسِــرٌ   سِــوَى وَالِــهٌ وَالكَــفُّ مِــنْ كَأسِهَــا صِــفْرُ
(عبــد القــادر الجزائــري، 1965م، ص. 209).

وفي سبيل الحصول على الغنيمة الكبرى، يبدأ الأمير هجرته مع عدم الاكتفاء بذكرها وتسميتها فقط، وإنما يتعدى الأمر حد تذوق معاناتها ومجاهداتها، وقطع مراحل الطريق الروحية مرحلة مرحلة من أجلها، فيهون ما عدا ذلك من ملذات دنيوية، وأهواء عاطفية،

وأوطان وأهالي، وأحباب وأصحاب، وقفار وبحار، يقول الأمير عن هذه الهجرة الروحية العجيبة في سبيل اقتناء خمرته الصوفية :

وَفـي شــمَهَا – حَقًّــا – بَذَلْـنَــا نُفُوسَنَــا   فـهَــانَ عَلَيْنَــا كُــلَّ شَــيْءٍ لَــهُ قَــدْرُ

وَمِلْـنَــا عَــنِ الأوْطَــانِ وَالأهْــلِ جُمْلَــةً   فَــلا قَاصِــرَاتُ الطَّــرْفِ تُثْنِـي وَلا القَصْــرُ

وَلا عَــنْ أَصْـحَابِ الــذَّوَائِبِ مَــنْ غَــدَتْ   مـلاَعِبُـهُــمْ مِنِّــي الـتَّرَائِــبُ وَالـــنَّحْرُ

هَجَرْنَــا لَهَــا الأحْبَــابَ وَالصَّـحْبَ كُلَّهُــمُ   فَـمَــا عَـاقَـنَــا زَيْــدٌ وَلا رَاقَنَــا بَكْــرُ

وَلا رَدَّنَــا عـنْـهَــا الــعَوَادِي وَلا الـــعِدَا   وَلا هَـالَـنَــا قَـفْــرٌ وَلا رَاعَـنَــا بَحْــرُ
(عبــد القــادر الجزائــري، 1965م، ص. 211).

لقد وصل الأمير في نهاية هذه الهجرة الروحية الشاقة إلى غايته السامية، وشرب من كأس خمرته الصوفية شربة تلو شربة، وعرف من أسرارها ما يجهله كثير من الملوك، وأدرك أن معرفة الأسرار العلوية هي فوق كل متاع الدنيا، وهذا ما عبر عنه في نهاية رحلته قائلا :

وَقَــدْ أَنْعَــمَ الـوَهَّــابُ فَضْــلا بِشُرْبِهَــا   فَلِلَّــهِ حَمْــدٌ دَائِــمٌ وَلَــهُ الشُّكْــرُ

فَقُــلْ لِمَلَــوكِ الأرْضِ أنْــتُمْ وَشَأنُكَــم   فَقِســمَتُكَمْ ضِــيْزَى وقِسْــمَتُنَا كَثْــرُ

خُــذِ الــدَّنْيَا وَالأخْــرَى أبَاغِيهِمَــا مَعًــا   وَهَــاتِ لَنَــا كَأسًــا فَهَــذَا لَنَــا وَفْــرُ
(عبــد القــادر الجزائــري، 1965م، ص. 212).

إن الشواهد الشعرية الآنفة الذكر ترسم لنا صورة جلية عن الرمز الخمري الصوفي في شعر الأمير عبد القادر، وتحيل على خصائصه المختلفة، فخمرته الصوفية معتقة، ومصونة، وليست في متناول الجميع بدليل افتقاد الأسواق لها، وهي خمرة الجنة التي لا

تسكر، غير أن أثرها يدفع بالملوك إلى التنازل عن عرشهم بعد الفراغ من احتسائها، وهي خمرة العلم بل كل العلم، وهي الغنيمة التي تهجر الديار والأهل والأحبة لأجلها، فكيف يعقل ألا يدركها طالبها ويستغني عما سواها بعد أن يتذوقها ويستسيغ حلاوتها ؟!.

الغزل الصوفي

إذا كانت الخمرة عند الصوفيين رمزا للمعرفة الإلهية، فإن المحبة أو (الغزل الصوفي) هو غزل إلهي لواجب الوجود المطلق أي الحق. وتعد قصيدة السهروردي الحائية من القصائد الصوفية التي تخدم هذه الفكرة وتدعمها، يقول هذا الصوفي المقتول :

وَارَحْمَتَـــا لِلْعَـــاشِقِينَ تَكَلَّفُـــوا سِـــتْرَ المَحَبَّـــةِ والهَـــوَى فَضَّـــاحُ

بِالسِـــرِّ إِنْ بَـــاحُوا تُبَـــاحُ دِمَاؤُهُـــم وَكَـــذَا دِمَـــاءُ العَاشِقِـــينَ تُبَـــاحُ

يَـــا صَـــاحُ لَـــيْسَ عَلَـــى المُحِـــبِّ مَلامَـــةٌ إِنْ لاحَ فِـــي أُفْـــقِ الوِصَـــالِ صَبَـــاحُ

لا ذَنْـــبَ لِلْعُشَّـــاقِ إِنْ غَلَـــبَ الهَـــوَى كِتْمَـــانُهُم فَنَمَـــا الغَـــرَامُ فَبَاحُـــوا[22]

لقد تطرق الأمير عبد القادر إلى موضوع الغزل الإلهي في بعض قصائده الصوفية، نذكر منها قصيدته (الحائية) التي تعد نسخة شبيهة لقصيدة السهروردي التي أشرنا إليها قبل قليل، فحرف الروي هو نفسه في كلا القصيدتين، والمعاني متشابهة عند الشاعرين، حتى يظن القارئ أن القصيدتين من نظم شاعر واحد. وقد تحدث الأمير في (حائيته) عن وصال الحبيب ورؤيته، ثم مزج بين موضوعي : الخمر والمحبة، ووصف ليالي اللقاء، منتقلا إلى التوجه الكلي للحبيب، ومستطردا صبر المحبين، ومبديا آخر الأمر موقفه الصريح من أهل العشق الإلهي.

وصل الأمير في مجاهداته إلى مرحلة التحقيق والمشاهدة التي تؤمن له الإيمان الذوقي التحقيقي فعرف وصال الحبيب الأول، هذا الوصال الذي اعتبره عيدا وأفراحا، وهو لقاء ينزل في قلب الأمير منزلة الروح والروح والراح، يقول الأمير في هذا الشأن :

أَوقَـــاتُ وَصْلِكُـــمُ عِيـــدٌ وأَفْـــرَاحُ يَـــا مَـــنْ هُـــمُ الـــرُّوحُ لِـــي وَالـــرَّوْحُ وَالـــرَّاحُ

[22] ينظر : ابن خلكان، أحمد (1299هـ). **وفيات الأعيان و أنباء الزمان.** (ج. 2). القاهرة : مطبعة بولاق، ص. 347.

يَــا مَــنْ إِذَا اكْتَحَلَــتْ عَيْنِــي بِطَلْعَــتِهِم   وَحَقَّقَــتْ فِــي مُحَيَّــا الحُسْــنِ تَرْتَــاحُ
(عبــد القــادر الجزائــري، 1965م، ص. 216)

إن وصال الأمير بالحبيب يحقق له رؤية الحبيب ولذة النظر إليه، فلم ينظر الأمير إلى شيء في هذا الوجود إلا وقد لاح منه أحباب قلبه، فصورة محبوبه مبثوثة في كل الكائنات، ولقد نظر شاعرنا الأمير إلى حسن الذي لا شيء يشبهه فقال :

فَمَــا نَظَــرْتُ إِلــى شَــيْءٍ بَــدَا أَبَــدَا   إلا وَأَحْبَــابُ قَلْبِــي دُونَــهُ لاحُــوا
(عبــد القــادر الجزائــري، 1965م، ص. 216)

ويؤثر الأمير أن يخلو إلى محبوبه في ليل طويل لا يعرف له أول ولا آخر، وقد أديرت الأباريق والأقداح المملوءة من خمرة المعرفة الإلهية، وهو كلما ازداد شربا من هذه الخمرة ازداد معرفة بهذا الحبيب، وكلما ازداد معرفة ازداد محبة له، يقول الأمير في جمعه بين المحبة والخمرة في الليل الطويل :

أَوَدُّ طَــولَ اللّيَــالِي أنْ خَلَــوتٌ بِهِــمُ   وَقَــدْ أُدِيــرَتْ أَبَارِيــقٌ وَأَقَــدَاحُ
(عبــد القــادر الجزائــري، 1965م، ص. 219)

إن أكثر ما يثير الخوف في الأمير الشاعر هو الصباح بضيائه ونوره، لأنه إيذان بفراق الأحبة خوف انكشاف أمرهم، فهذا الليل بدا مشرقا من حسن طلعة حبيبه، وكل الدهر إشراق وإصباح إذا كان شبيها بالليلة التي يطل عليه الحبيب فيها، وهذا ما عبر عنه الأمير بقوله :

يَرُوعُنِــي الصُّــبْحُ إِنْ لاَحَــتْ طَلاَئِعُــهُ   يَــا لَيْتَــهُ لَــمْ يَكُــنْ ضَــوْءٌ وَإِصْــبَاحُ

لَيْلِـي بَـدَا مُشْـرِقًا مِـنْ حُسْـنِ طَلْعَـتِهِم   وَكُــلُّ ذَا الــدَّهْرِ أَنــوَارٌ وَأَفْــرَاحُ
(عبــد القــادر الجزائــري، 1965م، ص. 220)

ويبدو التوجه الكلي عند الأمير في حبه الإلهي هذا حين تخلى عن جميع الندماء ما عدا واحدا هو الذي عنده أخبار الحبيب، ويعمل جاهدا على نشر هذه الأخبار وإيضاحها. وليس للكسب المادي من قيمة في نظر الأمير، وإنما الكسب الروحي هو قيمة القيم، وغاية الغايات، يقول الأمير في هذا الشأن :

فَمَا نَدِيمِي بحَانِ الأُنْسِ غَيْرَ فَتَى لَهُ لأَخْبَارِهِم نَشْرٌ وَإِيضَاحُ

لا كَسْبَ لي بَلْ وَلا شُغْلَ وَلا عَمَلَ فَفِي حَدِيثِهِم تَجْرٌ وَأَرْبَاحُ

مَا جَنَّةُ الخُلْدِ إلا فِي مجَالِسِهِم فِيهَا ثِمَارٌ وأطيَارٌ وأروَاحُ
(عبد القادر الجزائري، 1965م، ص. 219)

ويقف الأمير متعجبا من صبر المحبين على أسرار المحبة الإلهية التي اؤتمنوا عليها، فيحاول كتم هذا الهوى الذي يختلج صدره، ولكن أنى له ما أراد لأن الهوى فضاح، وتظهر علامات المحبة عند المحب من منظور الأمير في قوله :

لَوْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ لأَعْجَبَنِي صَبْرُ المُحِبِّينَ مَا نَاحُوا وَلا بَاحُوا

أُرِيدُ كَتْمَ الهَوَى حِينًا فَيَمْنَعُنِي تَهَتُّكِي كَيْفَ لا وَالحُبُّ فَضَّاحُ
(عبد القادر الجزائري، 1965م، ص. 217).

أمّا عن موقف الأمير من أهل العشق الإلهي، فهو موقف الحزين الذي يتملكه الشجن واليأس، لأن حظهم الهلاك سواء كتموا محبتهم، أو صرحوا بها، وهذا ما يظهر واضحا في قوله :

وَيْحَ أَهْلِ العِشْقِ هَذَا حَظُّهُمُ هَلْكَى مَهْمَا كَتَمُوا وصَرَّحُوا
(عبد القادر الجزائري، 1965م، ص. 242)

هذا هو الغزل الصوفي في شعر الأمير، يبدأ وصالا وراحة نفسية وقت لقاء الحبيب وتحقيقا للذة النظر إليه، وحين يفتقد النظر إليه مباشرة يستعين بالنظر إلى أي شيء أمامه، لأن صورة الحبيب معكوسة في كل الكائنات. والخلوة بالحبيب تستلزم الخمرة الإلهية وإلا ما اكتمل المجلس، ومجلس كهذا لا يعقد إلا في ليل لا يرضى انقضاءه، يشع بجمال الحبيب، وانقضاؤه معناه فراق الحبيب. وحين يغيب الحبيب يستعين بالنديم الذي يحمل أخبار محبوب القلب وإلا فلا للندماء، وصبر الحبيب ضرب من المستحيل، وحب كهذا ينتهي بالهلاك لا محالة.

إنّ الحديث عن التصوف في شعر الأمير يدفعنا دفعا إلى التعريج على المدح الصوفي عنده، ولو أن الأمير لم يتعرض في قصائده المدحية الصوفية المخصوصة بمشايخه إلا لمدح شيخيه: محمد الشاذلي القسنطيني الذي تعرف إليه في أسره بأمبواز، ومحمد الفاسي الذي تعرف إليه أثناء رحلته الصوفية التي قادته إلى الحجاز. ولم يتطرق الأمير في مدحه الصوفي

إلى النواحي المادية مطلقا، فلم يمدح شيوخه بالجمال، والجاه، والسعة، وأكد في المقابل على النواحي المعنوية الخلقية، وكيف يمكن للأمير أن يمدح شيخا له بفضائل دنيوية، وهو القائل عنه :

وَمَـــا زَهْـــرَةُ الـــدُّنْيَا بِشَـــيْءٍ لَـــهُ يُـــرَى وَلَـــيْسَ لَهَـــا - يَوْمًـــا - بمَجْلِسِـــهِ نَشْـــرُ
(عبـــد القـــادر الجزائـــري، 1965م، ص. 203)

افتتح الأمير عهد المديح الصوفي بقصيدة (ميمية)، نظمها بمناسبة لقائه لأول مرة قطبا من أقطاب الصوفية المشهورين هو الشيخ محمد الشاذلي القسنطيني، وقد أكد في مدحه له على ثلاثة أمور هي : جلاء الآلام والأحزان، والمحبة المتبادلة بينهما، ومنزلة الشيخ من ابن عربي. ولقب الأمير شيخه الشاذلي بالحبيب الذي تنجلي بحضوره الهموم والكروب التي لازمته في أسره، يقول الشاعر :

أَهْـــلا وَسَهْـــلا بِالحَبِيـــبِ القَـــادِمِ هَـــذَا النَّهَـــارُ لَـــدَيَّ خَيـــرُ مَوَاسِـــمِ
جَـــاءَ السُّـــرُورُ مُصَـــاحِبًا لِقُدُومِـــهِ وَانْـــزَاحَ مَـــا قَـــدْ كَـــانَ قَبْـــلُ مُلاَزِمِـــي
(عبـــد القـــادر الجزائـــري، 1965م، ص. 98).

أما عن المحبة المتبادلة ومراحلها بين التلميذ وشيخه، فقد عبر عنها الأمير بتعابير الصوفيين أنفسهم وهي مراحل اليقين الثلاث (علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين). وقد بدأت المحبة بين الأمير وشيخه الشاذلي قبل عهد اللقاء والتعارف بين الاثنين، فكانت سمعية أولا، أي في علم اليقين حسب المصطلح الصوفي. ثم انتقلت إلى مرحلة عين اليقين عند المشاهدة النظرية، أو اللقاء بينهما، ثم أصبحت في المرحلة الأخيرة حق اليقين بعد محبتهما وصداقتهما. يقول الأمير ملخصا مراحل هذه المحبة :

لاَ غَـــرْوَ إِنْ أَحْبَبْـــتُكُمْ مِـــنْ قَبْـــلِ مَـــا شَـــاهَدْتُّكُم أَنْـــتُم جمَـــالُ العَـــالَمِ
كَانَـــتْ عَلَـــى سَـــمْعِي تَغَـــار نَـــوَاظِرِي حَتَّـــى رَأَيْتُـــكَ أَنْـــتَ أَنْـــتَ مُكَـــالِمِي
وَالآنَ صِـــرْتَ مِـــنَ الـــيَقِينِ بِحَقِّـــهِ وَبِعَينِـــهِ إِنَّ السُّـــرُورَ مُـــنَادِمِـــي
(عبـــد القـــادر الجزائـــري، 1965م، ص. 99)

ينزل الأمير شيخه الشاذلي في عصره منزلة ابن عربي، فمكان الشيخ العلى، ولا يدعي هذه المكانة أحد عارف بعلم الشيخ، يقول الأمير في هذا الشأن :

أَسَـمِّي قُطْـبَ العَـارِفِـينَ لَـكَ الـعُلَـى مُتَبَوِّئًـا مِنْـهُ أَجَـلَّ مَعَـالِمِ
أَنْـتَ الـذِي فِـي الفَضْـلِ أَصْـبَحَ مُفْـرَدًا لِعُـلاَهُ مَـا مِـنْ مُـدَّعٍ وَمُزَاحِـمِ
(عبـد القـادر الجزائـري، 1965م، ص. 99)

مثلما أفرد الأمير لشيخه الشاذلي أبياتا في المدح، خص شيخه محمد الفاسي بالغرض نفسه، واقتصر كلامه فيه عن خصاله وفضائله الصوفية، وشمائله الإنسانية، وأول هذه الشمائل عند الشيخ كرمه، وحلمه، وزهده، وصبره، فإذا كان حاتم الطائي قد أصبح مضرب المثل بكرمه، وكان الأحنف بن قيس مضرب المثل بحلمه، وكان إبراهيم بن أدهم مضرب المثل بزهده، فإن الشيخ- من منظور الأمير- قد قرأ الحسن من كل جوانبه وجمع إليه كل هذه الشمائل متفوقا عليهم جميعا، وهذا ما عبر عنه الأمير بقوله :

وَمَا حَاتِـمُ ؟ قُـلْ لي وَمَا حِلْمُ أَحْنَفِ ؟ وَمَـا زُهْـدُ إبـرَاهيمَ أَدْهَـمِ ؟ مَـا الصَّـبْرُ ؟
(عبـد القـادر الجزائـري، 1965م، ص. 202)

ويؤكد الأمير في مدحه لشيخه الفاسي على رحابة صدره وحلمه، فهو هشوش بشوش، لا يستفزه الغضب جراء هدوئه وتحكمه في أعصابه، ووجهه طلق المحيا على الدوام، يقول الأمير :

هَشُـوشٌ بَشُـوشٌ يَلْقَـى بِالرَّحْـبِ قَاصِـدَا وَعَـنْ مِثْـلِ حَـبِّ المُـزْنِ تَلْقَـاهُ يَفْتُـرُ
فَـلا غَـضِـبَ حَـاشَـا بِـأَنْ يَسْـتَـفِـزَّهُ وَلا حِـدَّةٌ كَـلا ولا عِـنْـدَه ضُـرُّ
لَنَـا مِنْـهُ صَـدْرٌ مَـا تُكَـدِّرُهُ الـدِّلا وَوَجْـهٌ طَلِيـقٌ لا يُزَايِلُـهُ البَشَـرُ
(عبـد القـادر الجزائـري، 1965م، ص. 203)

إنّ هذه الفضائل والخصال التي يتحلى بها الشيخ الفاسي، إنما هي فضل من الله تعالى ينعم به على من يشاء من عباده، وللشيخ أن يفتخر بما من الله عليه من شمائل معنوية، عكس الملوك الذين يفخرون بما امتلكوا من الأشياء المادية، وفي هذا يعبر الأمير :

فـــذَلِكَ فَضْـــلُ اللهِ يُـؤْتِيـــهِ مَـــنْ يَـشَـــا وَلَـيسَ عَلَى ذِي الفَضْـلِ حَصْـرٌ وَلا حَجْـرُ

وَذَا وَأبِيـــكَ الفَخْـــرُ لا فَخْـــرَ مَـــنْ غَـــدَا وَقَـــد مَلَـــكَ الـدُّنْيَـــا وَسَـاعَـــدَهُ النَّصْـــرُ

(عبـــــد القـــــادر الجزائـــــري، 1965م، ص. 204)

وتشكل هذه الفضائل الربانية الآنفة الذكر مرتبة الكمال التي وصل إليها شيخ الأمير، إنها مرتبة عالية من العلم والورع الذي لا يضاهيه فيه أحد، وهذا هو مدلول البيت التالي :

وَهَـــذَا كَمَـــالٌ كُـــلَّ عَـــنْ وَصْـــفِ كُنْهِـــهِ فَمَـــنْ يَـــدَّعِي هَـــذَا فَهَـــذَا هُـــوَ السِـــرّ

(عبـــــد القـــــادر الجزائـــــري، 1965م، ص. 204)

إنّ مرتبة الكمال التي وضع فيها الأمير شيخه محمد الفاسي، تؤهله -من منظور الأمير- لأن ينصبه الإمام **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه خليفته لو عاش رابع الخلفاء معه ورأى منه ما رآه الأمير، وفي هذا يقول الأمير :

أَبُـــو حَـسَـــنٍ لَـــوْ قَـــدْ رَآهُ أَحَبَّـــهُ وَقَـــالَ لَـــهُ أَنـــتَ الخَلِيفَـــةُ يَـــا بَحْـــرُ

(عبـــــد القـــــادر الجزائـــــري، 1965م، ص. 204)

من ملامح المدح الصوفي كذلك في شعر الأمير، ما تجلى في مدائحه لخير خلق الله محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، كيف لا ؟! والأمير سليل الروضة النبوية الطاهرة، يقول الأمير مناجيا الرسول صلى الله عليه وسلم :

يَـــا سَـــيِّدِي يَـــا رَسُـــولَ اللهِ يَـــا سَـــيِّدِي وَيَـــا رَجَـــائِي وَيَـــا حِصْـــنِي وَيَـــا مَـــدَدِي

أَبْـغِـــي رِضَـــاكَ وَلا شَـــيءَ أَقَـدِّمُـــهُ سِـــوَى افْتِقَـــارِي وَذُلِّـي وَاصْـــفِرَارِ يَـــدِي

إِذا أَنْـــتَ رَاضٍ فَيَـــا فَخْـــرِي وَيَـــا شَـــرَفِي مَـــاذَا عَلَـــيَّ إِذَا وَالَيـــتَ مِـــنْ أَحَـــدِ ؟

(عبـــــد القـــــادر الجزائـــــري، 1965م، ص. 142-143).

ونختم هذه الشواهد الشعرية بتلك الأبيات التي يعبر فيها عن ولائه وحبه للرسول صلى الله عليه وسلم، وحسبه شرفا أن نسبه يعود إلى بيت النبوة، ويكفيه فخرا أنه المؤمن بربه، الصادق في حبه، المخلص في دينه واعتقاده، يرجو الثواب من الكريم الوهاب، ويرغب الأجر في دار المغفرة والعقاب، يقول الأمير في هذا الشأن :

أَبُونَــا رَسُـــولُ اللهِ خَيْــرُ الــــوَرَى طَـــرَا فَمَــنْ فِي الــوَرَى يَبْغِــي يُطَـاوِلَنَــا قَــدْرَا؟

وَلَاَنَــا غَـــدَا دِينًـــا وَفَـرضًـــا مُحَتَّـمًـــا عَلَــى كُــلِّ ذِي لُـــبٍّ بِـــهِ يَـأمَـــنُ غَـــدْرَا

وَحَسْــبِي بِهَـذَا الفَخْـرِ مِــنْ كُـلِّ مَنْصِـبٍ وَعَــنْ رُتْبَــةٍ تَسْــمُو وَبَيْضَــاءَ أَوْ أَصْــفَرَا

وَبِـــاللهِ أَضْحَـــى عِـزُّنَـــا وَجَمَـالُـنَـــا بِتَقْـــوَى وعِلْــــمٍ وَالتَّـــزَوُّدِ لِلأُخْـــرَى
(عبـــد القـــادر الجزائـــري، 1965م، ص. 163)

ونافلة القول ؟، لقد اجتمعت للأمير عبد القادر الجزائري مجموعة من الأسباب، عملت كلها في تكوين شخصيته الصوفية، فنزعته الإنسانية دفعته إلى الإيمان بوحدة الأديان السماوية، وتربيته الدينية والصوفية غرست في نفسه روح الفتوة والمرابطة، وإيمانه الشديد بالقضاء والقدر جعلته متأكدا من أنه خلق ليكون صوفيا بالميلاد والتربية والميل، ومحاربته للتقليد والمقلدين دليل إيمانه التحقيقي الروحي الذوقي، وهجره للسياسة والحرب دفعته إلى ارتداء لباس التصوف والعبادة، وعزلته في الأسر جعلته يتوجه إلى الله بالتضرع والدعاء والعبادة والتحلي بالصبر. وقد عالج الأمير - في جملة ما عالجه شعره الصوفي- رمزين من رموز الصوفية، أولهما : الخمرة، وهي رمز المعرفة الإلهية، أو معرفة الحبيب الأزلي، وثانيهما : الغزل الإلهي، أي المحبة وهي رمز لواجب الوجود المطلق. أما مدحه الصوفي فكان نتيجة حتمية ومنطقية لخضوع الأمير والتذلل لشيخيه الصوفيين : محمد الشاذلي القسنطيني، ومحمد الفاسي، ونسبه الذي يعود إلى بيت النبوة.

رحم الله الأمير عبد القادر الجزائري، فقد كانت أقواله تصدقها الأفعال، ومن ثم خط مجدا لا يطاول ولا يطال، فكان العالم والشاعر والزعيم والبطل الذي لم تكن للمناصب ولا للمال ولا للجاه ولا لشيء في الدنيا قيمة، أمام ما يعمل له من غايات سامية وما به يضرب المثل لتبقى الأمة متمسكة بحقها وبأمجادها وبمقدساتها. فكان للجزائر مدة ستة عشر عاما قائدا يذود، وعقلا يدبر ويتأهب لمقارعة الصعاب والمحن بفكره وبسيفه وبقلمه.

إنّ ميزة الأمير عبد القادر الجزائري أن كان له صولجان وكان له قلم، بيد أن الذي يفتخر به كل جزائري، بل كل عربي وكل مسلم أنه لم يجعلهما إلا لما يقتحم لأمته به طريق الخلود، وأن كان له من الآراء والمآثر والأعمال والمبرات ما جعله لا في طليعة الزعماء والقادة، ولا في طليعة العباقرة والمفكرين، بل وفي طليعة عباد الرحمن المتصوفين.

بيبليوغرافيا

ابن الفارض (1888). **جلاء الغامض في شرح ديوان ابن الفارض**. (ط. 2). عني به أمين الخوري. بيروت : المطبعة الأدبية، ص. 148.

إسماعيل، العربي (1981). **مذكرات الكولونيل أسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر**. الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

الأمير عبد القادر الجزائري (1967م). **المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد**. ثلاثة مجلدات. (ط. 2). دمشق : منشورات دار اليقظة العربية، ص. 141، (مج. 1، ص. 46)، (مج. 2، ص. 678). ص. 825.

الأمير عبد القادر الجزائري (1996). **المواقف، مخطوط الأمير عبد القادر**. الجزء الثاني، صورة من الأصيلة المحفوظة بالمكتبة الوطنية، الجزائر.

الأمير عبد القادر الجزائري (د. ت.). **ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**. (ممدوح حقي. تح. تق.). بيروت : مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع. ص. 37.

الأمير عبد القادر الجزائري (1965م). **المواقف 2. الموقف : 276**. ص. 825. **الموقف : 123**. صص. (27، 173،384).

البستاني، بطرس (1882م). **الأمير عبد القادر الجزائري**. المجلد الحادي عشر، بيروت : مطبعة المعارف.

بوزيد، بومدين (د.ت.). **الأمير عبد القادر الجزائري (هزيمة الحرب وانتصار المعرفة)**. مخبر الأبعاد القيمية للتحولات السياسية والفكرية بالجزائر. الجزائر : دار القدس العربي. ص. 127.

تشرشل، شارل هنري (2004). **الأمير عبد القادر**. (أبي القاسم سعد الله، ت وتع وتق.). الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية.

الجرجاني، الشريف (2007م). **التعريفات**. (محمد عبد الرحمن مرعاشلي، تح.). (ط. 2). بيروت : دار النفائس.

زروق، أحمد (1968م). **قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة**. ضبطه وعلق عليه إبراهيم اليعقوبي. دون تحديد مكان الطبع : مطبعة الملاح.

سعدوني، ناصر الدين وبوعبدلي الشيخ المهدي (1984). **في تاريخ العهد العثماني**. الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب.

الكتاني، نور الهدى (2008م). **الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين**. (ط. 1). بيروت : دار الكتب العلمية.

محمد الصغير، وآخرون (1995م). **مذكرات الأمير عبد القادر (مخطوط)**، (ط. 2). الجزائر : شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع.

مذكرات الأمير القادر مخطوط سيرة ذاتية كتبها في السجن. (1849). (بناني محمد بناني و محمد الصباح الجون، تحق وتع.).